

حياة أعظم الرسل

محمد تموت أمه

# مَحَمَّدٌ تَمُوتُ أُمُّهُ

مَرَّتْ سَنَوَاتٌ يَا بُنَيَّ وَمُحَمَّدٌ فِي  
بَيْتِ حَلِيمَةٍ . وَقَدْ كَبِرَ جِسْمُهُ ، وَظَهَرَ  
ذِكَاؤُهُ النَّادِرُ . وَقَدْ حَفِظَهُ اللَّهُ قَبْلَ أَنْ  
يُولَدَ ، وَبَعْدَ أَنْ وُلِدَ . وَأَعْجَبَ بِهِ إِعْجَابًا  
كَثِيرًا كُلُّ مَنْ رَأَاهُ وَسَمِعَهُ وَهُوَ يَتَكَلَّمُ  
اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ الْجَمِيلَةَ . وَحِينَمَا بَلَغَ مُحَمَّدٌ  
مِنَ الْعُمَرِ خَمْسَ سَنَوَاتٍ أَحْضَرَتْهُ مَرْبِيتُهُ

حَلِيمَةٌ ثَانِيَةً إِلَى أُمِّهِ آمِنَةً . وَفِي بَيْتِهَا كَانَ  
يَنْتَظِرُهُ جَدُّهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ الَّذِي كَانَ  
يُحِبُّهُ كُلُّ الْحُبِّ . وَفَرِحَتْ الْأُمُّ كُلَّ  
الْفَرَحِ بِمَجِيءِ ابْنِهَا الْعَزِيزِ ، وَفَرِحَ الْجَدُّ  
بِخَفِيدِهِ ( ابْنِ ابْنِهِ ) .

وَفِي هَذِهِ الْمَرَّةِ لَمْ يَكُنْ مُحَمَّدٌ طِفْلاً  
رَضِيعاً حَتَّى تَضَعَهُ حَلِيمَةٌ بَيْنَ ذِرَاعَيْهَا ،  
وَلَكِنَّهُ كَانَ طِفْلاً فَائِقَ الذَّكَاءِ ، كَثِيرَ  
النَّشَاطِ ، يَشْتَرِكُ مَعَ الْحَاضِرِينَ مَعَ جَدِّهِ  
فِي مُحَادَثَتِهِمْ وَكَلَامِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ ،

وَيَذْكُرُ — وَعُمُرُهُ خَمْسُ سِنِينَ — آراءً  
 سَلِيمَةً ، وَأَفْكَارًا صَحِيحَةً ، كَأَنَّهُ رَجُلٌ  
 عَالِمٌ فِي سِنِّ الْأَرْبَعِينَ . فَعَقْلُهُ نَاضِجٌ ،  
 يُفَكِّرُ وَهُوَ طِفْلٌ تَفَكِيرَ رَجُلٍ ذَكِيٍّ .  
 وَهَذِهِ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْهِ ؛  
 لِإِعْدَادِهِ لِلرَّسَالَةِ الَّتِي اخْتَارَهُ لَهَا فِي  
 الْمُسْتَقْبَلِ .

تَحَدَّثَتْ آمِنَةٌ مَعَ ابْنِهَا وَهِيَ مُعْجَبَةٌ  
 بِهِ . وَتَحَدَّثَتْ الْجَدُّ مَعَ حَفِيدِهِ وَهُوَ  
 فَخُورٌ بِهِ .



وَقَالَتْ آمِنَةٌ لِجَدِّهِ : هَلْ كُنْتَ  
تَنْتَظِرُ حَفِيدًا أَعْظَمَ وَأَكْمَلَ مِنْ هَذَا ؟  
إِنَّكَ تَرَاهُ الْآنَ وَهُوَ يَمْشِي وَيَجْرِي ،  
وَكَلُّهُ نَشَاطٌ ، وَصِحَّتُهُ قَوِيَّةٌ ، وَأَخْلَاقُهُ  
كَامِلَةٌ ، وَآدَابُهُ عَالِيَةٌ ، وَلُغَتُهُ فَصِيحَةٌ ،  
وَتَفَكِيرُهُ صَائِبٌ .

وَقَدْ فَرِحَتْ الْأُمُّ وَالْجَدُّ كُلُّ الْفَرَحِ  
بِمُحَمَّدٍ . وَقَدَّمَ جَزِيلَ الشُّكْرِ لِحَلِيمَةٍ ،  
لِعِنَايَتِهَا الْعَظِيمَةِ بِهِ . وَالْحَقُّ أَنَّ اللَّهَ  
قَدْ أَدَّبَهُ فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهُ ، وَرَبَّاهُ فَأَحْسَنَ

تَرْبِيَّتُهُ . وَقَدْ كَافَأَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ حَلِيمَةَ  
مُكَافَأَةً ثَمِينَةً ، وَأَكْرَمَهَا كُلَّ الْإِكْرَامِ .  
رَجَعَتْ حَلِيمَةُ إِلَى بَيْتِهَا وَهِيَ  
مَسْرُورَةٌ . سَعِيدَةٌ لِتَوْفِيقِهَا فِي تَرْبِيَةِ  
مُحَمَّدٍ تَرْبِيَةً كَامِلَةً ، شَاعِرَةٌ بِالْأَلَمِ  
لِفِرَاقِهِ .

وَإِنَّ السَّنَوَاتِ الْخَمْسَ الَّتِي مَكَثَهَا  
مُحَمَّدٌ فِي بَيْتِ سَعْدٍ قَدْ أَثَرَتْ فِي نَفْسِهِ  
كُلَّ التَّأْثِيرِ ، وَتَرَكَتْ أَثَرًا قَوِيًّا  
لَا يُنْسَى . وَتَذَكَّرَ عَلَى الدَّوَامِ أُمَّهُ

مِنَ الرِّضَاعِ الَّتِي أَرْضَعَتْهُ وَرَبَّتْهُ ،  
وَعُنِيَتْ بِهِ كُلَّ عِنَايَةٍ . وَقَدْ اعتَادَتْ  
حَلِيمَةُ أَنْ تَزُورَ مُحَمَّدًا كُلَّمَا ذَهَبَتْ إِلَى  
مَكَّةَ ، فَيَحْتَرِمَهَا كُلُّ الإِحْتِرَامِ ، وَيَفْرُشُ  
لَهَا ( عَبَاءَتُهُ ) لِتَجْلِسَ عَلَيْهَا ، وَيُكْرِمَهَا  
كُلَّ الإِكْرَامِ . وَلَمْ يَنْسَ تَرْبِيَّتَهَا لَهُ .  
وَكَانَ يُسَاعِدُهَا وَيَعْطِفُ عَلَيْهَا كُلَّمَا  
جَاءَتْ إِلَيْهِ بِمَكَّةَ .

وَذَاتَ مَرَّةٍ حَدَّثَتْ مَجَاعَةٌ فِي قَبِيلَةِ  
بَنِي سَعْدٍ ، فَأَعْطَى مُحَمَّدٌ حَلِيمَةَ جَمَلًا



مُحَمَّلًا بِكُلِّ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْأَغْذِيَةِ  
وَالْأَطْعَمَةِ ، وَأَهْدَى إِلَيْهَا كَثِيرًا مِنْ  
الْهَدَايَا . وَبَعْدَ أَنْ رَجَعَ مُحَمَّدٌ إِلَى  
مَكَّةَ بِوَقْتٍ قَصِيرٍ أَخَذَتْهُ أُمُّهُ لَزِيَارَةِ  
الْمَدِينَةِ ، وَرُؤْيَةِ الْأَقَارِبِ مِنْ بَنَى  
النَّجَّارِ . وَأَخَذَتْ مَعَهَا جَارِيتَهَا أُمَّ أَيْمَنَ .  
وَأَسْمَهَا بَرَكَةً .

وَحِينَمَا وَصَلُوا إِلَى الْمَدِينَةِ أَخَذَتْ  
أَمِنَةَ مُحَمَّدًا لِتُرِيَهُ الْمَنْزِلَ الَّذِي مَرِضَ  
فِيهِ أَبُوهُ عَبْدُ اللَّهِ ، وَتُرِيَهُ الْمَقْبَرَةَ الَّتِي



دُفِنَ فِيهَا بَعْدَ مَوْتِهِ .

وَقَدْ أَهْدَتْ آمِنَةُ حَيَاتَهَا لِمُحَمَّدٍ ،  
وَجَعَلَتْهَا لَهُ وَاحِدَةً . وَعَاشَ رَسُولُ اللَّهِ  
مَعَ أُمِّهِ عَيْشَةً سَعِيدَةً تَحْرُسُهُ رِعَايَةُ اللَّهِ  
وَعِنَايَتُهُ ، وَيُنَبِّئُهُ اللَّهُ نَبَاتًا حَسَنًا .

وَبَعْدَ أَنْ مَكَثُوا شَهْرًا بِالْمَدِينَةِ أَخَذُوا  
فِي الْإِسْتِعْدَادِ لِلرُّجُوعِ إِلَى بَيْتِهِمْ فِي  
مَكَّةَ . وَفِي مُنْتَصَفِ الطَّرِيقِ بَيْنَ الْمَدِينَةِ  
وَمَكَّةَ فِي مَكَانٍ يُسَمَّى ( الْأَبْوَاء )  
مَرَضَتْ آمِنَةُ فَجَاءَتْ ، وَمَاتَتْ ، وَدُفِنَتْ

فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ . فَصَارَ مُحَمَّدٌ يَتِيمَ  
الْأَبِ وَالْأُمِّ ، وَعُمُرُهُ سِتُّ سَنَوَاتٍ .  
وَيُمْكِنُكَ يَا بُنَيَّ أَنْ تَتَخَيَّلَ مِقْدَارَ  
مَا أَحَسَّ بِهِ مُحَمَّدٌ — الْغُلَامُ الصَّغِيرُ  
السِّنِّ — مِنَ الْحُزْنِ بَعْدَ مَوْتِ أُمِّهِ  
الْعَزِيزَةِ . فَهُوَ الْآنَ يَتِيمٌ ، لَا أَبَ لَهُ يُفَكِّرُ  
فِيهِ ، وَلَا أُمَّ تَعْطِفُ عَلَيْهِ . وَقَدْ رَجَعَتْ بِهِ  
جَارِيَةٌ أَبِيهِ أُمُّ أَيْمَنَ ، وَهِيَ حَزِينَةٌ  
كُلَّ الْحُزْنِ ، بَاكِةٌ لِمَوْتِ سَيِّدَتِهَا ،  
وَتَرَكِ ابْنَهَا وَهُوَ صَغِيرٌ . وَبَعْدَ أَنْ مَاتَتْ

أُمُّهُ أَخَذَهُ جَدُّهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ مَعَهُ فِي  
بَيْتِهِ ، وَاهْتَمَّ بِتَرْبِيَّتِهِ ، وَأَحَبَّهُ أَكْثَرَ  
مِنْ حُبِّهِ لِأَوْلَادِهِ . وَكَانَ لِجَدِّهِ سَجَّادَةٌ  
يَجْلِسُ عَلَيْهَا فِي الْكَعْبَةِ . وَلَا حِتْرَامَهُ لَمْ  
يُسَمَّحْ لِأَحَدٍ مِنَ الْأَطْفَالِ بِالْجُلُوسِ  
عَلَيْهَا . وَكَثِيرًا مَا كَانَ مُحَمَّدٌ يَأْتِي  
وَيَجْلِسُ مَعَ جَدِّهِ عَلَى السَّجَّادَةِ ،  
فِيَحَاوِلُ أَعْمَامُهُ أَنْ يَأْخُذُوهُ بَعِيدًا ،  
وَيَمْنَعُوهُ مِنَ الْجُلُوسِ عَلَيْهَا ، فَيَقُولُ  
لَهُمْ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ : أَتُرْكُوا ابْنِي مُحَمَّدًا



جَالِسًا ، وَلَا تُضَايِقُوهُ .

وَمُنْذُ فَقَدْ مُحَمَّدٌ أَبَاهُ وَأُمَّهُ ، وَحُرِّمَ

حُبَّهُمَا وَعَظْفُهُمَا وَعِنَايَتُهُمَا — اِزْدَادَ

حُبُّ جَدِّهِ لَهُ ، وَعَوَّضَهُ كُلُّ مَا فَقَدَهُ مِنْ

حُبٍّ وَعَظْفٍ وَعِنَايَةٍ ، فَكَانَ مُحَمَّدٌ الْيَتِيمُ

سَعِيدًا بِجَدِّهِ . وَقَدْ اعْتَادَ الْجَدُّ أَنْ يَلْعَبَ

مَعَ حَفِيدِهِ ، لِيَدْخُلَ الْفَرَحَ وَالسُّرُورَ فِي

قَلْبِهِ ، وَلَكِنْ لَمْ تَدُمْ هَذِهِ السَّعَادَةُ مُدَّةً

طَوِيلَةً ، لَمْ تَدُمْ أَكْثَرَ مِنْ سَتَتَيْنِ ؛ فَقَدْ

مَرِضَ جَدُّهُ ، وَقَبْلَ أَنْ يَمُوتَ سَأَلَ عَنْ

حَبِيبِهِ مُحَمَّدٍ ، وَهُوَ عَلَى فِرَاشِ الْمَوْتِ .  
وَحَاوَلَ بِكُلِّ قُوَّتِهِ أَنْ يَلْعَبَ مَعَهُ كَمَا تَعَوَّدَ  
مِنْ قَبْلُ ، وَلَكِنَّ آلامَ الْمَرَضِ قَدْ  
اشْتَدَّتْ ، وَاهْتَزَّتْ يَدُهُ ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ  
يَلْعَبَ مَعَهُ . فَأَخَذَتْ الدُّمُوعُ تَتَسَاقَطُ  
عَلَى خَدَّيْ الْجَدِّ الْكَبِيرِ ، وَعَانَقَ  
مُحَمَّدًا ، وَقَبَّلَهُ وَهُوَ يَبْكِي . وَفِي تِلْكَ  
اللَّحْظَةِ دَخَلَ أَبُو طَالِبٍ حُجْرَةَ أَبِيهِ عَبْدِ  
الْمُطَّلِبِ ، فَرَأَى أَبَاهُ يَبْكِي ؛ لِأَنَّهُ سَيُفَارِقُ  
مُحَمَّدًا ، وَلَنْ يَلْعَبَ مَعَهُ ثَانِيَةً .

فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ : لِمَذَا تَبْكِي يَا أَبِي ؟  
 إِنَّا جَمِيعًا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَجُلٌ شَجَاعٌ ، وَقَدْ  
 قَضَيْتَ حَيَاتَكَ كُلَّهَا فِي خِدْمَةِ قَوْمِكَ  
 وَمَوْطِنِكَ . وَكُنْتَ بَيْنَ أَهْلِ مَكَّةَ مُحْتَرَمًا  
 مِنْ الْجَمِيعِ . وَقَدْ أَدَيْتَ وَاجِبَكَ بِكُلِّ  
 أَمَانَةٍ وَإِخْلَاصٍ . فَلِمَذَا تَبْكِي ؟

فَأَجَابَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ : إِنَّكَ مُخْطِئٌ  
 يَا بُنَيَّ إِذَا ظَنَنْتَ أَنِّي خَائِفٌ مِنَ الْمَوْتِ .  
 إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّ الْمَوْتَ حَقٌّ ، وَأَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ  
 سَيَذُوقُهُ . إِنَّنِي أَبْكِي مِنْ أَجْلِ مُحَمَّدٍ



الْيَتِيمِ الصَّغِيرِ ؛ فَقَدْ حُرِمَ أُمُّهُ بَعْدَ مَوْتِ  
أَبِيهِ ، وَسُيُحَرَّمُ جَدُّهُ بَعْدَ لِحْظَاتٍ . فَمَاذَا  
سَيَحْدُثُ لَهُ بَعْدَ مَوْتِي ؟ وَمَنْ سِيرِيَّتِهِ  
تَرْبِيَةِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ مِنْ بَعْدِي ؟ فَأَجَابَ  
أَبُو طَالِبٍ :

إِنَّ كُلَّ عَمٍّ مِنْ أَعْمَامِهِ سَيُعْنِي بِهِ كُلَّ  
الْعِنَايَةِ . إِنَّا سَنُحِبُّهُ مَحَبَّتَنَا لِأَطْفَالِنَا ،  
وَسَنُحْمِيهِ بِأَرْوَاحِنَا وَسُيُوفِنَا . أَرْجُو أَنْ  
تَسْتَرِيحَ يَا أَبِي . وَلَا تُفَكِّرْ فِي هَذَا .  
فَأَوْصَى عَبْدُ الْمُطَّلِبِ ابْنَهُ أَبَا طَالِبٍ

وَقَالَ لَهُ : خُذْ مُحَمَّدًا عِنْدَكَ ، وَرَبِّهِ مَعَ  
أَوْلَادِكَ . إِنَّهُ بَعْدَ مَوْتِي سَيُحْسِنُ بِالْيَتِيمِ .  
لَقَدْ فَقَدَ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَجَدَّهُ . فَكُنْ لَهُ أَبًا وَأُمًّا  
وَجَدًّا . وَمِنْ أَعْمَاقِ قَبْرِى سَأَشْكُرُ لَكَ  
كُلَّ شَيْءٍ تَعْمَلُهُ مِنْ أَجْلِ مُحَمَّدٍ .  
هَذِهِ ... وَصِيَّتِي ... الْأَخِيرَةُ ... لَكَ .  
وَبَعْدَ أَنْ نَطَقَ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ أَسْلَمَ  
عَبْدُ الْمُطَلِّبِ الرُّوحَ لِخَالِقِهِ ، وَمَاتَ ،  
مُتَأَكِّدًا أَنَّ حَفِيدَهُ مُحَمَّدًا الْيَتِيمَ سَيَجِدُ  
كُلَّ عِنَايَةٍ مِنْ بَعْدِهِ .

وَكَانَ مُحَمَّدٌ الْعَزِيزُ بِجَانِبِ جَدِّهِ ،  
وَهُوَ يُسَلِّمُ رُوحَهُ لِلَّهِ .

وَقَدْ بَكَى مُحَمَّدٌ عَلَى جَدِّهِ بُكَاءً  
كَثِيرًا ، وَآثَرَ مَوْتَهُ فِيهِ كُلَّ التَّأْثِيرِ .

وَقَدْ حَافِظَ أَبُو طَالِبٍ عَلَى الْوَعْدِ  
الَّذِي وَعَدَ بِهِ أَبَاهُ ، فَأَحَبَّ مُحَمَّدًا كُلَّ  
الْحُبِّ ، وَجَعَلَهُ كَأَحَبِّ أَبْنَائِهِ إِلَيْهِ ،  
وَأَخَذَهُ مَعَهُ أَيَّمَا ذَهَبَ . وَاعْتَادَ مُحَمَّدٌ أَلَّا  
يَنَامَ إِلَّا مَعَ عَمِّهِ فِي فِرَاشِهِ ، وَلَا عَجَبَ ؛  
فَهُوَ أَخٌ شَقِيقٌ لِعَبْدِ اللَّهِ وَآلِدِ مُحَمَّدٍ .